ابن نباتة المصري

حياته، أدبه، وأثره في الشعر العربي

زكائي غول

المقدمة

أهمية دراسة ابن نباتة المصري:

تُعد دراسة شعر ابن نباتة المصري ضرورة علمية لفهم إحدى المراحل المحورية في تطور البلاغة والبديع في الأدب العربي. فقد استطاع هذا الشاعر المملوكي أن يؤسس لأسلوب زخرفي محكم، جمع فيه بين فصاحة العبارة وجمال التصوير، مما جعله نموذجًا أصيلًا لفن البديع في العصر الوسيط. كما أن نتاجه الشعري لا يُفهم بمعزل عن سياقه الاجتماعي والسياسي، حيث عكس في قصائده هموم زمانه من اضطرابات، وتوق للزهد، ومدائح نبوية تنبض بالإخلاص الروحي. ولا تقف أهميته عند حدود التأثير الأسلوبي، بل تتعداها إلى كونه همزة وصل بين مدرستين شعريتين: الكلاسيكية العباسية والتكلف المملوكي المتأخر. ومن هنا، فإن دراسة آثاره تُسهم في كشف البنية الجمالية للشعر العربي في حقبة حساسة، وتُبرز دور الأدب في التعبير عن رؤية الإنسان في زمن التغيرات.

أهداف البحث:

- التعريف بشخصية ابن نباتة المصري من خلال تتبع سيرته الذاتية ومراحل حياته، لفهم السياق التاريخي والثقافي الذي نشأ فيه.
- تحليل الخصائص الفنية لشعره، مع التركيز على أسلوبه البديعي، واستخدامه للمحسنات اللفظية والصور البلاغية.
- استكشاف أغراضه الشعرية المتنوعة، مثل المديح، الزهد، الغزل، والرثاء، وتبيان مدى تنوع تجربته الشعرية.
- دراسة نثره ومراسلاته الأدبية، وإبراز أسلوبه في الكتابة النثرية الرسمية والخاصة.
- تحديد مكانته بين شعراء عصره، من خلال المقارنة بينه وبين معاصريه مثل الصفدي وابن الوردي.
- بيان أثره في تطور الشعر العربي، ومدى تأثيره في الأجيال اللاحقة من الشعراء والنقاد.
- تسليط الضوء على القيمة التراثية لأعماله، وأهمية حفظها ودراستها ضمن سياق الأدب العربي الوسيط.

المنهج المتبع

ينتهج هذا البحث الأسلوب البلاغي التحليلي، بوصفه الأداة الأنجع في مقاربة النصوص الأدبية التي تزخر بجماليات التعبير وتراكيب البيان. وقد وقع الاختيار على هذا المنهج لما يمتاز به شعر ابن نباتة المصري من كثافة أسلوبية، وتوظيف بارع لفنون البديع، كالجناس، والطباق، والتورية، والانزياح، مما يستدعي قراءة دقيقة تستنطق النصوص وتكشف عن أسرارها الجمالية.

كما يستند البحث إلى المنهج التاريخي الوصفي عند تناول سيرة الشاعر ومكانته بين أقرانه، وذلك لتأطير تجربته الأدبية ضمن سياقها الزمني والثقافي، وربطها بالتحولات الفكرية والاجتماعية التي شهدها العصر المملوكي. وبهذا المزج المنهجي، يسعى البحث إلى تقديم رؤية شاملة تجمع بين التحليل الفني والتأصيل التاريخي، بما يليق بمكانة ابن نباتة في خارطة الشعر العربي.

المبحث الأول: النشأة والخلفية التاريخية

وُلد ابن نباتة المصري عام 686هـ/1287م في مدينة القاهرة، عاصمة الثقافة والسياسة في العصر المملوكي، في حيٍّ يُعرف بـ"زقاق القناديل" بالفسطاط. نشأ في بيئة علمية وثقافية نابضة، حيث انحدر من أسرة علم وبيان، فجده الخطيب عبد الرحيم بن نباتة كان أحد أعلام الخطابة في العصر العباسي. وقد أسهمت هذه النشأة الغنية بالعلم والأدب في تشكيل ذائقته البلاغية المبكرة، فشبّ محبًا للشعر، نَهِمًا للقراءة، متطلّعًا إلى النبوغ في مضمار البيان.

مولده

ولد ابن نباتة المصري، واسمه الكامل جمال الدين محمد بن محمد بن محمد الجُذامي الفارقي المصري، في مدينة القاهرة عام 686هـ / 1287م، وتحديدًا في زقاق القناديل بمدينة الفسطاط.

ينتمي إلى أسرة علمية عريقة، فجده هو الخطيب عبد الرحيم بن نباتة، أحد أعلام الخطابة في العصر العباسي، وقد نشأ في كنف أسرة تهتم بالعلم والدين، مما ساعد على صقل موهبته الأدبية مبكرًا. وقد انعكست هذه النشأة الراقية في شعره الذي جمع بين الفصاحة والجزالة، وبين الزخرفة اللفظية والعمق المعنوي.

نسبه وأصله

ينتمي جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجُذامي الفارقي المصري، الشهير بـ"ابن نباتة المصري"، إلى أسرة عربية عريقة الجذور، تعود في نسبها إلى قبيلة جُذام، وهي من القبائل اليمنية التي استوطنت بلاد الشام ومصر. وقد أُضيف إليه لقب "الفارقي" نسبةً إلى مدينة ميافارقين الواقعة في شمال الجزيرة الفراتية، والتي كانت موطن أجداده، بينما لُقّب بـ"المصري" لأنه وُلد وعاش في القاهرة، حيث بزغ نجمه الأدبي [1]

البيئة الثقافية في العصر المملوكي

ميّز العصر المملوكي (648–923هـ) بثراء ثقافي فريد، رغم ما شابه من اضطرابات سياسية وتقلّب في الحكم. فقد تحوّلت القاهرة ودمشق إلى منارات علمية كبرى، حيث ازدهرت المدارس النظامية، وانتشرت الزوايا والخوانق، وأصبحت مراكز لتدريس الفقه، واللغة، والحديث، والتفسير، مما أرسى دعائم نهضة معرفية واسعة النطاق، واهم اثار تلك المدرسة الفخمة الرائعة بناء وهندسة ومعرفة الان بمسجد السلطان حسن بحي القلعة بالقاهرة ، وتعد اية من آيات الفن المعماري في عصر المماليك [2].

وقد شهدت هذه المرحلة حركة تأليف موسوعية غير مسبوقة، تمثّلت في ظهور كتب كبرى مثل لسان العرب لابن منظور، والمقدمة لابن خلدون، ونهاية الأرب للنويري، مما يعكس عمق الانشغال بالتصنيف والتوثيق في مختلف العلوم. كما ازدهرت مهنة الوراقة، وانتشرت المكتبات العامة والخاصة، مما أتاح تداول المعرفة بين طبقات المجتمع المختلفة .

أما في ميدان الأدب، فقد برز تياران متوازيان: أحدهما تقليدي يحاكي أساليب القدماء، والآخر تجديدي يجنح إلى الزخرفة اللفظية وفنون البديع، وهو التيار الذي انتمى إليه ابن نباتة المصري، فكان شعره مرآةً صافية لهذا المناخ الثقافي المتنوّع ، ولا نبالغ اذا قلنا ان المؤلفات التي صدرت في العهد المملوكي —هو اقل من ثلاثمئةعام —بلغت عشرات الالف من الكتب والموسوعات [3]

---

[1] ديوان ابن نباتة المصري جمال الدين بن نباتة المصري الفاروقي (ت ٧٦٨ هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان الطبعة: بدون عدد ص3

[2] الادب في العصر المملوكي ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ص 27

[3] البيئة الثقافية في العصرين المملوكي والعثماني، ظهير الشعراني، مجلة المعرفة ،عدد: 585تاريخ الإصدار: 1 يونيو 2012 ص151

فإنشاد الشعر و غناؤه ، كان يسمح للمتلقي أن يدرك بعض مواقع التكرار و التوازي في الكلام ، لكنه لم يكن طبيعة النظام الذي كان يحكم بناء هذا الكلام المختلف ، لأن ذلك كان يتطلب معرفة بالنصوص الشعرية ، و إنصاتاً لما يعتمل فيها من نغمٍ ، و إيقاعات مختلفة . هذا ما أقدم عليه الخليل الذي عمل على تصنيف بحور الشعر و حصرها في خمسة عشر بحرًا لا غيرَ و سيصير العروض ، وفق طبيعة النظام الذي وضع الخليل بن أحمد قواعده ، علما قائمًا بذاته ، مثله في ذلك مثل علم القوافي أو القافية . "[4]

وقد ساهمت هذه البيئة في صقل مواهب الأدباء، ومنحتهم أدوات التعبير الفني، فكان نتاجهم مزيجًا من الفصاحة الكلاسيكية والتفنّن البلاغي، وهو ما يتجلّى بوضوح في شعر ابن نباتة الذي جمع بين عمق المعنى وجمال المبنى .

و هؤلاء الأعلام يجهلهم كثير من الدارسين و طلبة الأدب ، لأن الاهتمام بالأدب العربي اقتصر على عهوده الأولى من العصر الجاهلي و حتى العصر العباسي ، و قلة الاهتمام به بعد سقوط بغداد ، بسبب الاعتقاد أن الأمة العربية راحت في سبات عميق حتى عصر النهضة ، وأن إنجازاتها الحضارية توقفت أو كادت . و هذا ليس صحيحاً ، لأن الأمة العربية استطاعت بعد ذلك أن ترد المغول على أعقابهم ، و أن تُنهي وجودَ الصليبيين من المشرق العربي .و استمرت في عطائها ، و تركت لنا من هذا العصر شواهد حضارية لازالت ماثلة أمامنا في البناء وغيره ، و أورثتنا علماً غزيراً و ثقافة واسعة ، أُثبتا في كتب كثيرة ، و منها كتب موسوعية جامعة ، ومنها كتب متخصصة ، بعضها حقق وُ طُبع ، و بعضها مازال مخطوطا ينتظر يد التحقيق و النشر . "[5]

المبحث الثاني: مراحل حياته وثقافته

في مسيرة ابن نباتة المصري، تتداخل محطات النشأة والترحال بتجارب ثقافية عميقة، صنعت منه شاعرًا متفرّدًا في بيئته. ومن هنا تبدأ ملامح حياته بالتكشف، مرحلةً بعد أخرى، ترسم لنا خطًّا زمنيًا ثريًا بالأدب والتأمل.

إقامته في مصر

لقد كانت إقامة ابن نباتة المصري في القاهرة حجر الأساس في تكوينه الأدبي والفكري، إذ نشأ في حي زقاق القناديل بالفسطاط، وسط بيئة علمية خصبة، وفي كنف أسرة تهتم بالعلم والبيان. وقد تلقّى علومه الأولى في حلقات المساجد والمدارس النظامية، وتعلّم على يد نخبة من العلماء، منهم شهاب الدين غازي والسراج الورّاق والحمامي، مما أتاح له التعمق في علوم الحديث واللغة والأدب.

في هذه المرحلة، بدأ نبوغه الشعري يزهر مبكرًا، حيث نظم أولى قصائده وهو في سن الثالثة عشرة، وذاع صيته في أوساط الأدباء والفقهاء، حتى أصبح من أشهر شعراء مصر في عصره. وقد ساعده استقراره في القاهرة على التواصل مع كبار رجال الدولة، مما مكّنه لاحقًا من تولّي ديوان الإنشاء في عهد السلطان الناصر حسن، ليصبح صاحب سره ومستشاره الأدبي.

لقد كانت القاهرة بالنسبة لابن نباتة ليست مجرد موطن، بل منبرًا أدبيًا صقل فيه موهبته، وفضاءً ثقافيًا أغناه بالتجربة والتأمل، قبل أن ينتقل لاحقًا إلى الشام في رحلة علمية وأدبية جديدة

انتقاله إلى الشام

بعد أن رسخت قدماه في أرض القاهرة، وذاع صيته بين أدبائها، قرر ابن نباتة المصري أن يوسّع أفق تجربته الأدبية والعلمية، فكان انتقاله إلى الشام .

4 صلاح بوسريف ، (2022) ، أوزان الشعر وإيقاعاته ، دار القلم العربي للنشر والتوزيع ، القنيطرة /المغرب ، الطبعة الأولى ، ، رقم الايداع MO4392 2021 ، ص/ ص .12 .13

5 ـ محمد محمود سالم ، (1420هـ ـ 1999م) ، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي ،سلسلة الأعلام ، جامعة دمشق ، دار ابن كثير بيروت ، الطبعة الأولى ، ص .5

لقد كانت رحلته إلى الشام عام 716هـ امتدادًا طبيعيًا لنضجه الشعري، إذ دخلها شاعرًا متكوّنًا، وخرج منها بعد عقود شاعرًا متفرّدًا. وهناك، في بلاطات الأمراء ومجالس العلماء، نسج قصائده في المديح والزهد، وارتقى بأسلوبه إلى ذروة البيان، حتى غدا اسمه يتردّد في أرجاء المشرق، ويُعدّ من أعمدة الشعر في العصر المملوكي.

شدّ الرحال إلى دمشق، ثم حلب، فحماة، متنقّلًا بين حواضر الشام الكبرى، حيث أقام فيها قرابة خمسين عامًا، نسج خلالها علاقات وثيقة مع كبار العلماء والأدباء، ومدح الملوك والوزراء والقادة، مما أكسبه مكانة مرموقة وشهرة واسعة في الأوساط الأدبية والسياسية.

في الشام، لم يكن مجرد شاعر متنقّل، بل أصبح صوتًا أدبيًا حاضرًا في بلاطات الحكم، وشارك في الحياة الثقافية بفعالية، حتى وُصف بأنه "شاعر المماليك في الشام"، وقد أثمرت هذه المرحلة عن نضج فني واضح في شعره، حيث ازدادت قصائده عمقًا، وتنوّعت أغراضه بين المديح، والزهد، والتأمل السياسي.

عودته إلى مصر وتوليه ديوان الإنشاء

وفي عام 761هـ، عاد إلى مصر بأمر من السلطان الناصر حسن، بعد أن بلغ من العمر أشدّه، ليُستقبل في بلاط السلطان ويُعيّن صاحب سرّه ومستشاره الأدبي بعد أن قضى ابن نباتة المصري عقودًا من عمره متنقّلًا بين حواضر الشام، وقد بلغ من النضج الأدبي والبلاغي مبلغًا جعله محطّ أنظار السلاطين والوزراء. لم تكن عودته مجرد رجوع إلى الوطن، بل كانت عودة الظافر بتجربة أدبية ناضجة، وشاعرٍ اكتملت أدواته، وتألّق بيانه.

ما إن وطئت قدماه القاهرة حتى استدعاه السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، وقرّبه إليه، وولّاه ديوان الإنشاء السلطاني، وهو من أرفع المناصب الإدارية والأدبية في الدولة المملوكية. وقد أصبح بذلك صاحب سرّ السلطان، يكتب رسائله الرسمية، ويشرف على المكاتبات السلطانية، ويُستشار في شؤون البلاغة والأسلوب.

في هذا المنصب، أظهر ابن نباتة براعة نادرة في فن الترسل، وخلّف عددًا من الرسائل الأدبية التي تُعدّ نماذج راقية في النثر الفني، جمع فيها بين الجزالة والبيان، والعمق السياسي والبلاغي. وقد أورد الصفدي في كتابه ألحان السواجع مراسلاته مع ابن نباتة في نحو خمسين صفحة، مما يدل على مكانته الأدبية الرفيعة.

ثقافته وشيوخه

تلقّى علومه الأولى في مدارس القاهرة ومساجدها الكبرى، حيث نهل من علوم الحديث، والفقه، واللغة، والنحو، والبلاغة، وبرزت ميوله الأدبية مبكرًا، إذ نظم أولى قصائده وهو في الثالثة عشرة من عمره.

وقد تتلمذ على يد نخبة من أعلام عصره، منهم:

- شهاب الدين غازي: أحد كبار المحدثين، وقد أخذ عنه علم الحديث الشريف.
- السراج الورّاق: أديب بارع، أثرى ذائقته البلاغية وأسهم في صقل أسلوبه الشعري.
- الحمامي: من علماء اللغة والنحو، وكان له دور في ترسيخ قواعد البيان لدى ابن نباتة.
- القاضي الفاضل (يُحتمل أن يكون من تلاميذ المدرسة الفاضلية): وقد تأثر بأسلوبه في الترسل والنثر الفني.

لم تقتصر ثقافته على النقل والتقليد، بل كان واسع الاطلاع، يقرأ في كتب المتقدمين، ويستوعب تراثهم، ثم يُعيد إنتاجه بأسلوب مملوكي زخرفي، يجمع بين الجزالة والابتكار. وقد انعكس هذا التنوع الثقافي في شعره الذي تميّز بـ التفنّن البديعي، والتصوير البياني، والعمق الدلالي، فضلًا عن نثره الذي اتسم بجزالة العبارة ودقة التعبير.

– اهتمامه بالحديث والأدب

نشأ في بيتٍ علميٍّ عُرف بالانشغال بالحديث، فجده وأبوه كانا من شيوخ الحديث، وقد تلقّى علومه الأولى في هذا المجال على يد شهاب الدين غازي، أحد كبار المحدثين في القاهرة. وقد ساعده هذا التكوين الديني على:

– فهم دقيق للغة العربية من خلال ألفاظ الحديث.

– استلهام المعاني الروحية في شعره، خاصة في المدائح النبوية والزهد.

– توظيف التراكيب النبوية في نثره بأسلوب أدبي راقٍ.

وقد أشار إلى هذا التكوين في بعض رسائله، حيث كان يفتتحها بعبارات مأثورة من الحديث، مما يعكس عمق تأثره به.

أما في ميدان الأدب، فقد كان ابن نباتة أديبًا بالفطرة، وشاعرًا بالتكوين، بدأ نظم الشعر في سن الثالثة عشرة، ودرس البلاغة والنحو على يد السراج الورّاق والحمامي، مما مكّنه من:

– إتقان فنون البديع كالجناس والتورية والطباق.

– تطوير أسلوب زخرفي مملوكي يجمع بين الجزالة والزينة اللفظية.

– كتابة نثر فني راقٍ، خاصة في رسائله السلطانية التي ضمّها الصفدي في ألحان السواجع.

وقد جمع في شخصه بين الراوية والناقد والمبدع، فكان يقرأ دواوين المتقدمين، ويُقلّبها نظرًا وتحليلًا، ثم يُعيد إنتاجها بروح عصره، مما جعله من أبرز شعراء المدرسة البديعية في القرن الثامن الهجري.

المبحث الثالث: شعره وخصائص قصائده

نظم الشعر هو أكبر تحد لدى كل شاعر ، وأن يكون الشاعر شاعرا يجب عليه أن يواجه تحديات القرن الذي يعيش فيه .

لقد تمكن الشاعر ابن نباتة المصري من مواجهة صعوبات الحياة وقساوتها لكنه تحدى معاناته ومآسيه وآلامه بقصائده الشعرية التي وصف فيها ذلك ، فهو شاعر عاش في الماضي ، ويعيش في الحاضر بشعره الخصب و الوفير.

ولا شك أن هناك أبيات شعرية في قصائده تلقى الضوء على القرن الذي عاش فيه و القرون التي تلته.

1ـ الحقول الدلالية في شعر ابن نباتة (دراسة أسلوبية)

لا تسال عن الشاعر فقد تبدو لك مواصفاته من خلال أسلوب كتابته.

" يتناول هذا البحث ديوان ابن نباتة المصري (676 . 768) بالدراسة الأسلوبية لمعجمه الشعري ، تلك الدراسة التي تأخذ بمعطيات النقد الحديث ، لتتكئ على اللغة وأدواتها في بيل الكشف عن الظواهر الأسلوبية التي تميز الشاعر . و قد درس ذلك المعجم عن طريق الوقوف أكثر على الحقول الدلالية تردداً في شعر ابن نباتة ، و هي : (حقل الموت ، حقل الخمر ، حقل الألم ، و الشكوى ، حقل الألفاظ العلمية). و رصد البحث توظيفه لتلك الحقول في أغراضه المختلفة كاشفا عن فلسفة الشاعر و رؤيته للعالم و ثقافته عبر استخدماته المختلفة للحقول."6

6 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص 147

" تمثل دراسة المعجم الشعري أهمية كبيرة في التحليل الأدبي ، و خاصة في المناهج الأسلوبية الحديثة التي ترتكز على البناء اللغوي للنص كي تنطلق منه إلى غيره ، فدراسة معجم النص تفتح أمامنا السبيل إلى التشكيل الجمالي و المعنى الرمزي ، و تمهد لنا طريقًا إلى إدراك ما في النص من أبنية و علاقات . و هي تحدد هوية المبدع و مستواه الثقافي والاجتماعي، وقد أشار بودلير إلى ذلك في قوله : (... لكي نكتشف عقلية شاعر ما أو ... ما شغل فكره أساسًا دعنا نفتش عن الكلمة أو الكلمات التي تتردد عنده كثيرًا ، فسوف تعبر هذه الكلمة عما يستحوذ على تفكيره).

إن التدقيق في خواص المعجم اللغوي عند الشاعر يكشف لنا عن كثير من اتجاه حركة المعنى داخل الأبيات ، كما يكشف عنها داخل المحور الذي تدور فيه ، و في الوقت نفسه يقودنا إلى اتصال المعنى بالعناصر التي تحيط بالشاعر على اختلافها ، سواء ذلك في العناصر المادية التي تقع تحت الحواس أو العناصر المعنوية التي يدركها الإنسان ولا يراها. فموقف الشاعر من كل هذه الأمور يكشف عن موقفه إزاء العالم و انعكاس الموقف على رؤيته الشعرية ."7 فالمعجم الشعري هو الذي يحدد تمايز النص ، و يبرز شعرية الشاعر و ثقافته و رؤيته للعالم . بناءًا على ما سبق سيقدم البحث دراسة المعجم اللغوي ، مركزا على كثرة التردد ويتوقف عند الحقل الدلالي للكلمة و أبعادها الدلالية عبر تجاورها وتحاورها و اكتسابها علاقات جديدة خلال ذوبانها في النص .

و ديوابن نباتة المصري ، جدير بتلك الدراسة ، نظرا لاتساع خيال الشاعر ، و توسع معجمه اللغوي ، و مقدرته الفنية و الإبداعية على توزيع مفردات هذا المعجم على الأغراض " المختلفة ، ليكسب ديوانه جدة في التصوير الشعري و التشكيل الإبداعي للنص ، عبر تلك المقدرة اللغوية و الخيالية . "8

" سيتم ذلك عن طريق تشريح النص و تفكيكه إلى حقول دلالية بتصنيف الألفاظ التي ترتبط فيما بينها ارتباطا دلاليا إلى مجموعات مختلفة لنتمكن من وصفها و تحليلها ، مراعين وظيفتها في سياقها و يقوم الاختيار على كثرة تردد الحقل في ديوان ابن نباتة المصري ، وتأثيرها على معجم الشاعر، و توظيفها في صور أو أغراض أو سياقات متعددة و مختلفة .

وقد كان أكثر الحقول الدلالية ترددًا في شعره هي تلك الحقول :

- حقل الموت
- حقل الخمر
- حقل الألم و الشكوى

و تنوع الحقول الدلالية و كثرة ترددها في المعجم الشعري لابن نباتة ، يدل على الاتساع والثراء الثقافي ."9

إن أسلوب الشاعر في ديوانه يعطي لنا انطباعا خاصا عن قوة شخصيته وثقافته العامة .

حقل الموت :

إن الخوف من الموت شعور اعتيادي يصدر بطريقة طبيعية وغريزية ، لكن المبالغة فيه قد تسبب عوائق فكرية ونفسية وفنية .

---

7 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص 147

8 المرجع نفسه ص 148

9 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص 148

" مازالت قضية الموت تشغل الإنسان منذ وجوده وما تزال البشرية تجهد في الهروب منه ، و البحث عن سبل لنجاتها و الظفر بالحياة . في حين أنه لا منجى من هذا المصير المحتوم ، ففي حين ما تتقدم النواحي المادية و العلمية ، يشاطرها الموت هذا التقدم بزيادة

أسبابه و علله . و هذا على مدى تاريخ البشرية . مما أقر من نفس الإنسانية استسلامًا لذلك القدر المحتم عليها ، و هذا الاستسلام الظاهري لم يخمد جذوة الصراع الداخلي بين غريزة الحياة و غريزة الموت .

و قد شُغِل الفلاسفة و الشعراء و الكتاب قديمًا و حديثًا بالتأمل و الوقوف على حقيقة هذا الصراع بينه و بين الحياة . ففي حين يرى بعضهم أن الموت شيء خارج عن النفس كـ "وايزمان " الذي يرى أنه ليس إلا لونًا من ألوان الحيلة و التخلص ، و أنه مظهر للتكيف وفق الظروف الخارجية . و ذلك طبقًا لكون المادة الحية تنقسم لجانبين :

أحدهما ـ فان و هو الجسد ـ و آخر ـ وقائي و هو التناسل . و هو موافق لقول "جوتة " أن " الموت نتيجة مباشرة للتناسل " . و قول شوبنهو " أن الموت هو النهاية الحقة ، هو لذلك غاية الحياة و كقول " هارتومان " أن الموت " انتهاء نمو الفرد " .

بينما يرى آخرون أن الموت غريزة داخلية نابعة من داخل النفس ذاتها ، كما يقول " هيرنج " : هناك نوعان من العمليات التي تجري في المادة الحية ، و يناقض أحدهما آخر ، فبينما يعمل أحدهما على البناء و التمثيل ، يعمل الآخر على الهدم أو التخلص " 10

" و يؤكد فرويد على المعنى الغريزي للموت ، و أنه نابع من داخل النفس ، و هو ما يجرى على ألسنة الكتاب و الشعراء ، لما فيه من بعض العزاء و السلوى و الاستسلام للناموس المحتوم . لكن فرويد ينحو منحا علميًا عبر الوقوف عند ظاهرة " الموت الطبيعي " رغم إهمالها من قبل الأقدمين الذين كانوا ينسبون الموت دائمًا لفعل عدو من الأعداء أو روح من الأرواح الشريرة ، رغم إهمالها كذلك من علماء الأحياء الذين خفيت عليهم مسألة الموت بأكملها و تحيروا فيها ، ـ كما يقول فرويد ـ لذلك رأى فرويد أن للموت قوى غريزية تدفع بخطى الحي إلى الموت و قد تكون عاملة فعالة رغم أن أثارها قد تختفي اختفاء تامًا بفعل القوى التي تحافظ على الحياة .

و بعد سوق تلك الأراء نقول : ان الخالق ـ سبحانه ـ قد أودع فينا أسباب الموت ، كما أودع أسباب الحياة . و ليست كلها أسبابًا غريزية نابعة من نفس الإنسان ، كما أنها ليست خارجة بالكلية عنها.

و مع ذلك فهي تتناسب عكسيا مع قوى الحياة و أسبابها ، فمع الهرم والشيخوخة تضعف أسباب الحياة ، و تقوى أسباب الموت ، و ذلك لميل النفس إلى السكون الأكبر (الموت) المشابه لذلك السكون اليومي الذي تخلد إليه النفس عبر نومها . و هذا يعلل القول بأن الموت غريزة داخلية في النفس ...

و إن كان ذلك الخلاف قائمًا بين فلسفة في الموت ، و كذلك بين العلماء و الشعراء والكتاب ، إلا أنه ما من خلاف أن غزيرة الحياة (البقاء) ـ تلك التي تصارع الموت ـ نابعة من داخل النفس . مما يؤكد أن ذلك الصراع بين غزيرة الموت و الحياة مستقر في نفس الإنسانية منذ بدء الخليقة إلى انتهائها . و هذا الصراع قد بدا واضحا في الشعر العربي ، لكن العقيدة الإسلامية قد خففت من وطأة هذا الصراع الداخلي في نفس العربي . و هو ما تجليه النظرة الاستقرائية لتطور "11

" ذلك الصراع في الشعر العربي عبر عصوره المختلفة . وقد تفاوت الشعراء في هذا الصراع في شعرهم أو خموده ، طبقًا لقدر الثقافية الإسلامية التي يتشبع بها الشاعر .

---

10 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص 149

11 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص 149

و قد وظف ابن نباتة حقل الموت في جميع أغراضه الشعرية . و ستناول دراسة حقل الموت عنده تحت ثلاثة نقاط :

أولاً : الألفاظ التي وردت من حقل الموت في شعر ابن نباتة .

ثانيا : الرؤية الفلسفية للموت عند ابن نباتة .

ثالثًا : النزاع بين غزيرتي الموت و الحياة في شعره ." 12

والجدير بالذكر، أن الخوف من الموت شعور لازم ابن نباتة طيلة حياته ، إلى حد المبالغة فيه ، حيث انعكس ذلك على كتاباته ، واتضح جليا في ديوان شعره ، ولعل ذلك راجع إلى ما خلفه الزحف المغولي والصليبي في عهده من أحداث مأساوية جرت فيها دماء المسلمين كالأنهار في سوريا والعراق ، دون أن ننسى أثر الموت الفاجع الذي ذهب ضحيته أبناؤه بسبب الفقر والمرض ..كل ذلك ساهم في جعل ابن نباتة يقحم موضوع الخوف من الموت في أبياته الشعرية وإنتاجاته الأدبية بطريقة إرادية أو لاإرادية.

أولاً : ألفاظ حقل الموت في شعر ابن نباتة :

" وظّف ابن نباتة الكثير من ألفاظ حقل الموت في أغراضه المختلفة مثل (الموت ، القبر، الحِمام ، الرحيل ، الفراق ، الهلاك ، النعش ، الدماء ، القتل ، الآجال ، المنايا ، الفقد ، اللحد الدفن ، الفناء ، الجدث) و جاءت هذه الألفاظ باشتقاقها ، و صيغها المتنوعة ، فجاء مثل لفظ الموت ، و لفظ مات ، و لفظ يموت ، و لفظ مُتْ ، و لفظ مِتُّ ، و لفظ ميت.."13

ثانياً : رؤية ابن نباتة للموت :

" شغل حقل الموت الكثير من شعر ابن نباتة ، و دخل تحت العديد من أغراضه ، ووظفه في معان مختلفة ، لكنها جميعًا تشترك في نظرة واحدة تجمعها ، هي نظرة الضعف أمام سطوة الموت و قهره ، الذي هو نهاية كل شيء ، و هو القدر المحتم على الإنسان ، سيقضي هذا الموت حتمًا عليه ، يقول ابن نباتة :

وَ مَا النَّاسُ إِلَّا رَاحِلٌ إِثْرَ رَاحِلٍ تَبَدَّتْ لَدَى الْبَيْدَا مَطَايَا قُبُورِهِمْ

فهو يقف هنا موقف المستسلم العاجز أمام سطوة الموت عن فعل شيء ، لذلك يلجأ إلى التعازي و السلوان عن طريق أخذه هذا المأخذ الحكمي في تقرير تلك الحقيقة المعبرة سيكوليجيا عن رؤيته الموت ،."14

فالملاحظ أن الموت يسيطر على ابن نباتة كثيرا في شعره ، وقد نفهم ذلك من خلال لفظة " راحل " ولفظة " بيداء" التي تؤكد أنه ينظر إلى الحياة بمنظور الموت ، ولا يوجد فيها مجال للحياة .

" وهذا الموت لا يستطيع أحد أن ينجو منه ، فمازالت الأجيال تفنى متتابعة جيلا إثر جيل ، وما الأعصر في تواليها إلا شاهدة بذلك . و قد ترك لنا الموت قبور هذه الأجيال بوصفها شاهدًا آخر . فلا يظن أحد أنه ناج من ذلك ، يقول ابن نباتة :

كَمْ وَاثِقٍ بِاللَّيَالِي مَدَّ رَاحَتَهُ إِلَى الْمَرَامِ فَنَادَاهُ الْحِمَامُ قَدِ

وَ بَاسِطٍ يَدَهُ حُكْمًا وَ مَقْدِرَةً وَوَارِدِ الْمَوْتِ أَدْنَى مِنْ فَمٍ لِيَدِ

---

12 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص 150

13 المرجع نفسه ص 150

14 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص 150

فاستخدم من ألفاظ حقل الموت في هذين البيتين : الحِمام / و الموت . و كثف هذه النظرة الإسلامية عبر البدء بـ (كم) الخبرية الدالة في هذا الموضع على الكثرة . ليثبت أنه ما "15

" من ناج من قدر الموت ، و يزيد في ذلك بالعطف على مجرورها في البيت الثاني كتأكيد للهيمنة . و من وثق بعيشه في الزمان يقطع عليه حمامه هذا الأمل بمناداته ان قد حان دورك ، ومن ظن أنه فارٌّ من موته بقدرته و حكمه ، لا يدري أن الموت لا يبعده ذلك عنه . و يزيد في التصوير المأساوي هذا بأن يجعل الواثق بعيشه يناديه الموت في الوقت الذي يظن أنه يكاد أن يبلغ مرامه . "16

فالمعلوم إن تجاوز الشيء حدوده انقلب إلى ضده ، حيث تحولت رغبة ابن نباتة المصري في التمسك بالحياة إلى الاستسلام للموت ، مما دفعه إلى المقارنة بين الموت والراحة النفسية ، و تشبيهه للموت بالرحلة النابعة من العقيدة الاسلامية .

" وقد وظف ابن نباتة المصري ذلك المعنى هذا في الرثاء ، "كما قال في رثائه لقاضي القضاة نجم الدين :

وَ لَوْ حَمَى الْمَرْءُ مِنْ مَوْتٍ صِنَاعِهِ لَأَقْبَلَتْ مِنْ فِجَاجِ الْأَرْضِ تَخْمِيكَا

فما من حام من سطوة هذا الموت ، حتى إن صنائع المعروف لن ترحم الإنسان من قدره ، فهذا المرثي في البيت قد بلغت صنائعه فجاج الأرض ، و مع ذلك يقف كل شيء أمام الموت عاجزا عن رده .

و في توظيف الشاعر لحقل الموت في غرض الغزل تسيطر عليه الصورة القهرية المستطلة للموت ، فيجعل من صورة الاستسلام لسحر الجمال في المحبوبة موتاً يقوم به هذا المجال . فكأنه يختزل حقل الموت في هذه الصورة المهيمنة المسيطرة على كل شيء، كما يقول في وصف سحر لحاظ المحبوبة:

تِلْكَ الَّتِي حَكَمَتْ سِهَامُ لِحَاظِهَا حُكْمًا تَأَمَّلَهُ الْجَمَالُ فَنَفَذَا "17

" تَجْرِي الدِّمَاءُ وَ سَيْفُهَا فِي جَفْنِهِ نَظَرًا وَ لَيْسَ السِّحْرُ إِلَّا هَكَذَا

و قوله :

نُجُومُ حُسْنٍ أَكْرَادُ أَرْضِكُمُ فَيَالَهَا عَشْقَةٌ دُهِيْتُ بِهَا

قد أشار إلى حقل الموت عبر بعض الألفاظ كـ: كجريان الدماء / السيف ... .و هو هنا يصور الجمال و الحب بالموت في الهيمنة و السيطرة على من وقع عليه تأثير الحب أو الجمال أو الموت. و ذلك يكشف عن نفسيته المتوجسة الضعيفة أمام سطوة الموت . ويؤكد ذلك المعنى عبر مضاهاته بالسحر الذي يفقد الإنسان إرادته ، و ينتزع منه قدرته على أموره ، فيسير به في الطريق الذي يريده الساحر ، و هو المعنى عينه في الموت عند الشاعر، و في البيت اللأخير يجعل عشقه هذا داهية دُهي بها من أثر وقعها و سيطرتها."18

تتجلى آثار الفترة التي عاش فيها الشاعر بوضوح في المفاهيم التي ذكرها في شعره والمتعلقة بالموت ، مما يؤكد ما خلفته البصمة المغولية والصليبية وإراقة دماء البشر من زيادة حساسية الشاعر تجاه الحياة و بالتالي الخوف من الموت .

ثالثًا : النزاع بين غزيرة الموت و الحياة في شعر ابن نباتة :

---

15 المرجع نفسه ص 150

16 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص. 150

17 المرجع نفسه ص.151

18 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص. 151

" إذا كانت رؤية ابن نباتة للموت هي تجسيده في صورة القاهر الذي لا يغلب ، و ليس دونه ملجأ و لا مفر ، و ليس أمام أحد إلا التسليم له ، فإن شعر ابن نباتة قد صور صراعًا نفسيًا بين غريزة الحياة التي هي راغبة في الفرار و التخلص من سلطان الموت الواقع عليها و لا شك ، و بين غريزة الموت الداعية إلى التسليم للقدر المحتوم . فبينما يتمثل الموت صورة المتسلط الدكتاتور الذي يفرض سلطانه على الجميع دون إختيار لأحد يستطيع أحد رده ، تنازعها صورة أخرى له ، خفية بعض الشيء ، ليست بقوة الصورة الأولى حتى نستطيع أن نجعلها رؤية له ... "19

"هذا الموت أو تخفيف وطأته . و أحيانًا ما كان يتجلى هذا الصراع بين غريزة الموت القابعة في نفسه و غريزة الحياة التي يدفع بها الموت عنده في صورة لهو و مجون . فإنه إن كان لا مفر من الموت ففيم التصبر عن اللهو و معاقرة الخمر ، يقول :

يَا عَذُولِي خَلِّنِي أَغْنَمُ عُـمْرِي إِنَّ أَعْمَارَ الْوَرَى كَالسُّحُبِ تَسْرِي

دَعْ فُؤَادِي وَ الَّذِي يَخْـــتَارُهُ مَا عَلَي ظَهرِكَ يَا عَاذِلُ وِزْرِي"20

"دَعْ غَوَانِي مَجْلِسِي تَصْدَحُ لِي فَغَدًا تَبْكِي البَوَاكِي حَوْلَ قَــبْرِي

يَا نَدِيمِـيَّ وَ هَــذَا يَوْمُـــنَا يَوْمُ صَحْوٍ فَاجْعَلَاهُ يَوْمَ سُكْرِي "

يشكل الموت لديه هاجسًا لا يغيب عن خياله ، ومع ذلك يجهد في مقاومته ومصارعته . إن ذلك الصراع هنا يظهر في أقوى أدواره ، حيث يظهر قلق الشاعر المستمر من ذلك الموت الذي يطارد أيامه ليقضي عليها. إن هذا القلق قد شكله انتشار أفعال الأمر في أرجاء الأبيات (خلني / دع في البيت الثاني / و تكرار الفعل دع مرة أخرى في البيت الثالث / اجعلا) و يظهر قلقه و تلهفه على الحياة تكرار النداء ، حيث ذكر صيغة النداء في البيت الأول و البيت الثاني و البيت الثالث . و قد ذكر من حقل الموت (العمر / القبر) لكنه يقابلهما بالغنم أي الكسب / و السحب التي تحمل الماء فتكون دلالة على الحياة / و الفؤاد و اختياره في التشبث بالحياة / و الغواني و السكر و النديمان في تكثيف للحياة و ملذاتها . كل تلك الألفاظ قابلها الشاعر بلفظين من حقل الموت، فكأنه يقيم صراعًا بين الموت والحياة ، و يكثف ما ينتمي للحياة في رغبة داخلية منه لقهر الموت .."21

والواضح أن ابن نباتة يرى الحياة وملذاتها ،من خلال اللهو وشرب الخمر، قهرا للموت ، وإن كان على مشارف الموت فهو متشبث بالحياة كثيرا ، وهذا يؤكد قوة غريزته الإنسانية وتلهفه على الحياة رغم خوفه الشديد من الموت .

هناك طريق سري يسلكه المرء ليصل إلى الله من خلال شكره وحمده نعم الله والملذات الدنيوية ، لكنه إذا انخدع الإنسان في هذا الطريق السري ، فسوف يسقط في فراغ كبير .

الفن هو التعبير عن هذه الممرات السرية المنفتحة على الله ، لا ينبغي للإنسان أن يضل طريقه في هذه المتاهة الفنية ، ولعل الشاعر هو خير فنان يعبر عن ذلك من خلال شعره وفنه .

إن نهاية الحياة خلق وجودي ينفتح على الحياة الحقيقية و صاحبها الوحيد هو الله بطريقة فنية . و قد شعر بهذه النشوة الشاعر ابن نباتة ، و خلق هذا الشعور في نفوس قرائه من خلال قصائده عن الموت.

---

19 المرجع نفسه ص. 151

20 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص. 151

21 المرجع نفسه ص, 152

" لَمْ يُـبْقِ شَيْـــيِ لَذَّةً وَ الشَّيبُ صبحٌ قَاطِعُ لَذَّاتِ"22

يرى ابن نباتة المصري أن الشيخوخة فترة تقضي على أذواق الحياة و ملذاتها. و لكن كشاعر يرى في كل نهاية بداية ، و يقول ما يلي:

" إِذَا تَعَمَّقَ فِي نَعْمَاءَ ضَاعَفَهَا كَأَنَّ كُلَّ نِهَايَاتٍ بِدَايَاتُ "23

رغم كل هذا ، لم يستطع ان يمنع نفسه من التساؤل عما إذا كان يمكن أن يكون هناك علاج للموت إذ يتحدث عن قيامة يسوع للموتى.

" هَذَاكَ أَحْيَا النَّاسَ مِنْ مَوْتٍ وَ ذَا فِي الْحُبِّ قَدْ وَافَى بِمَوْتِ النَّاسِ

مِنْ أَجْلِ مَبْسَمِهِ الشَّهِيِّ تَفَتَّحَتْ فِي كَـفِّهِ أَبَـــدًا شِفَاهُ الْكَأْسِ

وَ كَأَنَّمَا مَـدَّ الْيَدَيْنِ صَلِيـبُهُ تَبْغِي عِنَاقَ قَوَامِـهِ الْمَـيَّاسِ "24

فكما سبق ذكره ، إن الشاعر ظل متشبثا بالحياة باحثا عن حل لمشكلة الموت ، ولعل اقتران شعره بالخمر واللهو ، ماهو إلا دليل واضح على محاولته الهروب من آلام الحياة ونسيان الموت .

" خَمْرَةٌ بِالْجَـــــامِ نَاهِضَةٌ نَهْضَةَ الْأَرْوَاحِ بِالْجُـــثَثِ " 25

فالشاعر ابن نباتة كان يرى الحياة جميلة في كل فصولها .إذ يمكن أن ينعم الإنسان بتجربة جمالية مختلفة في كل موسم . فالحياة ممتعة و رائعة ومفيدة جدا برحلاتها إلى العالم الأبدي .

حقل الخمر :

" و هو من الحقول التي ترددت في شعر ابن نباتة كثيرًا ، حيث اهتم بذكر أسمائها ، و أوصافها، و مجالسها ،و الأديرة التي تبيعها، و فعلها بأربابها . وذكر تردده على هذه الأديرة وحضوره مجالس الطرب و اللهو التي تدار فيها الخمر، و من الألفاظ التي ذكرها في ذلك الحقل الدلالي : الخمر و المدام و المدامة و العسجدية ، و الكميت ،و القهوة ،و الصهباء، و السلاف والسلافة ، والخرطوم ، و الشمول ، و الحميا ، و المعتقة ، و العصر ، و عصير العنقود ، و الرحيق ، و المشعشعة ، و المزة ، و السلسال ، و ابنة العنب ، و الحباب و السكر والصحو ، و الراح ، و الكأس و الزجاجة ، و الساقي ، و السقاة ، و الحانة ، و الحنات ، و الدير و النديم ، و الندامى ، و الندمان ، و الشرب ، و الترنح ، و النشوة ، و الصبوح ، و الغبوقلا ، و المصطبح ، و المغتبق ، و الثمالة ، و العلّ (و هو الشرب) . و قد وظفه الشاعر في مختلف الأغراض ، و هو يستوحى من الخمر دائمًا معانى اللذة والسرور و الاشتهاء "26

" فقد استخدم ابن نباتة هذا الحقل في مطلع قصائده المدحية ، فأحيانًا ما كان يفتح قصيدة المديح بمطلع خمري ، كقوله :

عَوِّضْ بِكَأْسِكَ مَا أَتْلَفْتَ مِنْ نَشَـبٍ فَالْكَاسُ مِنْ فِضَّةٍ وَ الرَّاحُ مِنْ ذَهَبِ

وَاخْطُبْ إِلَى الشُّرْبِ أُمَّ الدَّهْرِ إِنْ نُسِبَتْ أُخْتُ السُّمْرَةِ وَ اللَّهْوِ إِبْنَةُ الْعِـــنَبِ

---

22 ابن نباتة المصري جمال الدين ، ***ديوان ابن نباتة المصري*** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 77

23 المرجع نفسه ص. 69

24 المرجع نفسه ص. 270

25 ابن نباتة المصري جمال الدين ، ***ديوان ابن نباتة المصري*** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 83

26 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص. 155

غَرَّاءُ حُيَالَهُ الْأَعْطَافُ تَخْـــطُرُ فِي ثَوْبٍ مِنَ النُّورِ أَوْ عِقْدٍ مِنَ الْحَـبَبِ

عَذْرَاءُ تُنْجِزُ مِيعَادُ السُّـــــرُورِ فَمَا تُومِي إِلَيْكَ بِكَـفٍّ غَيْرِ مُغْتَـصَبِ

مَصُونَةٌ تَجْعَلُ الْأَسْـتَارَ ظَاهِـــرَةً جَـنَّةٌ تَتَلَقَّى الْعَـيْنَ بِاللَّـــــهَبِ

لَوِ لَمْ يَكُـــنْ لِقَاهَا غَـيْرَ رَاحَـتِنَا مِنْ حِرْفَةِ الْمُتْعَـبِينَ الْعَقْلِ وَ الْأَدَبِ

فَهَاتِ فَاشْرَبْ إِلَى أَنْ لَا يَبِينَ لَنَا أَ نَحْنُ فِي صَـعْدٍ نَسْتَنُّ أَمْ صَـبَبِ

خَفَّتْ فَلَوْ لَمْ تُدِرْهَا كَفُّ حَامِـلِهَا دَارَتْ بِلَا حَامِلٍ فِي مَجْلِسِ الطَّرَبِ

يَا حَبَّذَا الـرَّاحُ لِأَرْوَاحٍ سَـيَّارَةٍ تَقْضِي بِسَعْدٍ سُرَاهَا أَنْجُمُ الْحَـــبَبِ

مِنْ كَفِّ أَغْيَدٍ تَرْوِي عَنْ شَمَائِلِهِ عَنْ خَدِّهِ الْمُشْتَهَى عَنْ ثَغْرِهِ الشَّنَـبِ

يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بالخمر ، داعيًا إليها ، محببا فيها ، و هذه كمقدمة تتناسب مع سياق قصيدة المدح التي يعدد فيها كرم الممدوح استجلابا لإنفاقه . و ذلك أن الخمر ارتبطت عند العرب بالكرم و كثرة الإنفاق ، لذلك سميت الكرم و قد سُبِقَ ابن نباتة إلى الإفتتاح بالمقدمات الخمرية ، لكن ذلك لم يمنع إجادته في هذا الباب ، فهو يقف في هذا المطلع موقف الخبير الناصح المجرب لها ، لذلك يفتتح مطلعه بفعل الأمر (عوّض) "27

" ثم تتوالى أفعال الأمر بعد ذلك ، (اخطب / هات / اشرب) و كلها تصب في المضمون ذاته .

ثم يعلل لهذا الأمر بالإقبال عليها بإظهار مزاياها ، مستخدمًا تشبيهها بالذهب و الفضة إلى تشبيهها بالمرأة العذراء المصونة ، التي إن نسبتها فإنك تجدها أختا للسرور ، و ابنة للعنب، و هي ليست كمن تخلف مواعيدها ، بل إنها تسارع لإنجاز مواعيد السرور ، كي تريحنا من عناء العقل و الأدب .ثم إنه يجعلها في اشتياق إلى متعاطيها ، حتى إن حاملها لو لم يدرها على المجلس لدارت وحدها . ثم يتخلص من تلك المقدمة إلى الغزل عبر وصف صاحبة الكف التي تدير الكأس في المجلس . "28

يركز ابن نباتة في وصف الخمر على معاني السرور و الفرح و السعد و الطرب وذهاب الهم والحزن . فالنسيان من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، لذلك صارت الخمريات وسيلة للنسيان و الهروب . ولطالما اعتبرت ملجأ لكل الأشخاص الذين لديهم موانع قوية ، لا يستطيعون نسيانها ، كما هو الشأن لابن نباتة . إذ يقول في شعره :

" وَيَطْرَحُونَ عَلَى الْأَبْوَابِ مِنْ حُمْقٍ قَصَائِدًا هِيَ فِي التَّحْقِيقِ بَابَاتُ

مِنْ كُلِّ أَبْـلَهٍ لَكِنْ مَا لِفِطنَـتِهِ كَالْبُلْهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِصَابَاتُ"29

يبدو ان ابن نباتة المصري يشعر بالقهرو الحزن

---

27 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص. 156

28 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص. 156

29 ابن نباتة المصري جمال الدين ، ***ديوان ابن نباتة المصري*** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 71

الشديد من وقت لآخر في حياته و يخطئ فيما يلجأ إليه .

و يقول أيضا :

"كَفَى حُزْنًا أَنْ لاَ مُعِينَ عَلَى الْأَسَى سِوَى أَنِّي تَحْتَ الظَّلَامِ بِعُشِّـهَا "30

و يقول أيضا :

" أَجَابَنِي قَبْلَ أَنْ نَادَيْتُ جُودُكَ إِذْ نَادَيْتُ جُودَ بَنِي الدُّنْيَا فَلَمْ يُجِبْ

فَإِنْ يَكُنْ بَعْضُ أَمْدَاحِ الْوَرَى كَذِبًا فَإِنَّ مَدْحَكَ تَكْـفِيرٌ مِنْ الكَـــذِبِ "31

يبدو أن ابن نباتة المصري يشعر بالقهر الشديد لذلك يقول عن الناس :

"وَالنَّاسُ إِمَّا مَادِحٌ أَوْ مُطْرِبٌ بِثَـنَائِهِ الْمَوْصُولِ بِالنَّغَـمَاتِ

وَالْكُلُّ بَيْنَ يَدَيْكَ خَادِمُ صَنْعَةٍ يُنْشِي وَ يُنْشِدُ وَالزَّمَانُ مُـوَاتِي

يَا جُودَ سُلْطَانِ الْعِبَادِ وَ مَدْحًا طَابَ الصَّبُوحُ لَنَا فَهَاكَ وَهَاتِ

وَأَرَى صَبُوحَكَ كَأْسَ أَجْرٍ وَ أُنْثَى فَاشْرَبْ هَنِيئًا يَا أَخَا الْلَـــذَّاتِ "32

كل هذه الأبيات تعطينا المعلومات المهمة عن الحزن العميق الذي عاشه الشاعر ابن نباتة المصري ، و العصر الذي عاش فيه ، و كيف كانت تصورات الناس في ذلك العصر.

الألم و الشكوى :

كان لهذا الحقل نصيب كبير في ديوان ابن نباتة ، حيث تعدد السياقات التي وظفها فيها الشاعر هذا الحقل . قد كان ابن نباتة يرى في شعره أنه سيرفعه مكانة عالية ، في حين أن الواقع دائمًا كان عكس ذلك ، فمازل ينتقل من مكان لآخر ، ومن ممدوح لآخر ، لكن الشعر و الشعراء في ذلك الزمان لم تكن لهم الحظوة ، نظرًا لتدني مكانة الشعر في ذلك الزمن عن سابقه .

و قد تعددت سياقات الشكوى و الألم الواردة في شعر ابن نباتة ديوان ابن نباتة :

فمن شكوى الزمان و أهله و شكوى الفقر و الفاقة ، إلى الشكوى الغربة و الحنين إلى وطنه و شكوى في فراق الأحبة ، و غلب توظيف الفاذ هذا الحقل في الرثاء ."33 ويقول بالم:

غَابَ ذُو الْفَضْلِ فِي حِمَى مِصْرَ عَنَّا فَهَنِيـــئًا لَهُ حِـمَى النَّعْـمَاءِ

تَسْقُـطُ الطَّـــيْرُ حَيْثُ تَلْتَـقِطُ الْحَـ بَّ وَتَغْشَى مَنَازِلَ الْكُرَمَاءِ

حَجَـلِيٌّ إِذَا انْتَسَـــبْتَ وَ لَكِـــنْ أَلْفُ عُرْفٍ لَهُ وَ أَلْفُ ثَنَاءِ"34

30 ابن نباتة المصري جمال الدين ، ***ديوان ابن نباتة المصري*** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 74

31 المرجع نفسه ، ص 23

32 المرجع نفسه ص. 74

33 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص/ص. 159.158

34 ابن نباتة المصري جمال الدين ، ***ديوان ابن نباتة المصري*** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 17

إن الشاعر ابن نباتة المصري قضى حياته في الفقر، إذ أنه لم يجد من يدعم شعره من الأغنياء الكرماء ، مما أجبره على الابتعاد عن مصر ، فاضطر للذهاب إلى سوريا و العيش هناك، فزاد ألم فراقه عن وطنه حدة ، وتضاعف شعوره بالحزن بسبب رحيله عن وطنه .

" يَا سَاكِنِي مِصْرَ تَبًّتْ لِلْفِرَاقِ يَدٌ قَدْ صَيَّرَتْ بَعْدَكُمْ حُزْنِي أَبَا لَهَبٍ

وَ مُهْجَتِي فِي ضُلُوعِي مِنْ جَوَى وَضَنَا حَمَّالَةَ الْهَمِّ أَوْ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ

عَنْ مَدْمَعِي وَ نَدَى كَفُّ الْأَمِيرِ الْأَ حْدَثِ عَنْ البَحْرِ يَا رَاتِيهِ بِالْعَجَبِ

أَمِيرُ حَاجِبِ مُلْكٍ غَيْرَ أَنْ لَهُ ثُورَ الْمَهَابَةِ يُغْنِيهِ عَنْ الحَجَبِ

يَا مُنْعِشِي حَيْثُ شَخْصِي فِي دِمَشْقَ وَ فِي تَفْلِيسَ مَالِي وَ دَمْعُ الْعَيْنِ فِي حَلَبِ"35

يصف الشاعر فراقه عن مصر و ألمه وشكواه بالتشبيه و المبالغة .

" صَبَّ بِمِصْرٍ حَيْثُ أَوْلَادُهُ بِالشَّامِ يَذْرِي الدَّمْعُ مَصْبُوباً

ذو كَبِدٍ حَرَّى وَ هُمْ بَعْضُهَا فَالْكُلُّ يَشْكُو الشَّوْقَ أَهْوُبَا

لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْمَعَ شَمْلِي بِهِمْ غَوْثُ الْوَرَى مَا بِتُّ مَكْرُوبَا

كَافِلُ دِينُ اللهِ سَيْفٌ لَهُ لَا زَالَ لِلْأُمَّةِ مَحْبُوبَا "36

ويشير الشاعر هاهنا إلى اليوم الذي ذرف فيه كل من في دمشق دموع الشوق إلى مصر .

يظهر أن الشاعر ابن نباتة المصري كان يعاني كثيرا من الألم في حياته ، كما يعاني المرء من ألم الضرس الشديد الذي يؤثر على دماغ صاحبه وليس فكه فقط ، وقد يفهم ذلك جليا من خلال ألفاظ حقل الشكوى والألم الواردة في ديوان ابن نباتة:

" الشكوى ، و الخوف ، و الأسى ، و الشجن ، و الحزن ، و الوحشة ، الألم ، الجور ، و البكاء ، و السهر ، و الجزع ، و الجوع ، والجفاء ، الزمان و الكفاح ، "

والنوى ، والبين ، و البلاء ، و الضرر ، و المكابدة ، و الشدائد ، و جور الأيام ، البكاء على الأيام ، و التأخر في الزمان ، و الفقد ، و الضعف ، و الهوان ، سوء الحظ ... ، و الرحيل ، و الغدر ، و الافتقار ، و الفقر و العناء ...

فمن قوله في جور الزمان :

مَا أَجْوَرَ الْأَيَّامَ فِي إِهْمَالِهَا حَقِّي وَ أَعْدَلِهَا عَنْ الإِنْصَافِ

أَشْكُو التَّأَخُّرَ فِي الزَّمَانِ وَ هَذِهِ شِيَمِي لَدَيْهِ وَ هَذِهِ أَسْلَافِي

هنا تتجسد شكوى من كان صاحب علم و ثقافة و موهبة ، ظن الأيام سترفعه ، ليبلغ بشعره و ثقافته مكانة عالية ."37 ويؤكد ابن نباتة المصري ذلك في ديوانه قائلا :

"كَأَنَّنِي يَا سَيْفَ دَوْلَةٍ فِتْنَةٌ بِكَ وَ هُوَ مُفْتَخَرٌ عَلَى الْقُدَمَاءِ

35 ابن نباتة المصري جمال الدين ، ***ديوان ابن نباتة المصري*** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 52

36 المرجع نفسه ص .52.

37 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص. 158

فِي الشِّعْرِ وَ الْإِنْشَاءِ بِإِبْنِ نَبَاتَةَ تَزْهُو عَلَى الْخُطَبَاءِ وَ الشُّعَرَاءِ "38

فالشاعر هاهنا يفتخر بشخصه كشاعر عظيم ذي مكانة عالية وسط شعراء عصره وخطباء زمانه ، ولعله شاعر يستحق ذلك لما تميز به عن غيره من كفاءة شعرية عالية في مختلف الأغراض الشعرية ، وكأنه يرد جوابا من خلال هذين البيتين على كل من أراد أن يمحو اسمه ومن مثله من لائحة النبلاء في سماء الأدب .

فالحياة قست عليه كثيرا لدرجة أصبحت أبياته الشعرية لا تخلو من الشكوى والألم بسبب فقره و عجزهو فقدان الرزق و و الأبناء و كذا تهميش و إهمال شعره في عصره.

على الرغم من ذلك هو كان متأكدا من جودة شعره و شاعريته.

"، ولكن الزمان لا يكافئ إلا أصحاب السلطان أو الأموال . و لا زالت تلك القضية هي أزمنة مثقفي كل العصر . فإن كانت تلك القضية قد تجسدت في قول ابن نباتة هذا أو في كثير من أقواله فقد ألح عليها كثير من الشعراء و المبدعين و المثقفين قبله . و ابن نباتة عبر عن تلك القضية عبر ألفاظ من حقل الألم و الشكوى و هي (أجور ، إهمال ، أعدل ، أشكو) .

قد استخدم صيغة (ما أفعل) في الجور و العدل ليعبر عن مدى الإحساس بالظلم وبخس الحق . و أوجد الطباق اللفظي بين الجور و العدل في البيت الأول ، و إن كان العدل حسبما يقتضيه سياق البيت لم يأت يقابل الظلم ، لكنه أتى ليقوي معناه ، فالأيام لا تعدل في حق الشاعر ، و إنما تميل عن إنصافه ، فهي تعدل عن حقه ولا تعدل في حقه . و في البيت الثاني يقر أن ما به ليس جديدًا على الزمان ، و إنما هو صفة لذلك الزمان المتأخر الذي لا يقدر الناس بأقدارهم ، بل بأموالهم و سلطانهم . و لك هذا لن يغير من مبادئ الشاعر و شيمه شيئًا ، فتلك الشيم هي شيم لازمة له و لأسلافه من قبله ، وما يلاقيه من جور أهل الزمان و قد لاقه أسلافه .... "39

الشعر عند ابن نباتة أصبح مهنة :

ابن نباتة المصري هو شاعر عانى كثيرا من صعوبات مالية طول حياته .أراد أن يكسب عيشه بقلمه و كان أسلوبه في ذلك هو مدح السلطان و الأمراء، لكن مدحه لهم لم يكن وسيلة للتملق بل كان صادقا ، فأشادهم بالكرم و الروح الخيرية التي شهدها فيهم. وأصبح مدح السلاطين و الأمراء بالشعر مهنة له ، و مصدر دخل له ولشعراء آخرين في تلك الفترة. وفي المقابل ، فقد استغل السلاطين والأمراء ذلك لصالحهم ، حيث تمكنوا من نشر قضاياهم وشؤونهم الاجتماعية بين الناس من خلال شعر الشعراء ومدحهم لهم .ولعل هذا ما جعلهم ينشئون مقاهي يجتمع فيها الناس يستمعون للشعراء وهم يمدحون ويذكرون مزايا السلاطين والأمراء .

وقد أجاد ابن نباتة في ذكر ذلك في شعره ،كما استفاض في وصف كرم ممدوحه و جود عطائه ، ووصف فضله و نعمه على الناس ، كما هو الشأن في قصيدته التي تحدث فيها قائلا :

" أَمَا وَلِي حَالَةٌ عَنْ مَـرَّةٍ نُقِّـلَتْ لَأَنْقُـلَنَّ بِهَا عَنْ عَـزْمِ هَمَّـامِ

وَرُبَّ شَائِمَـةِ عَزْمِي وَ مُرْتَحَـلِي إِلَى حِمَى مِصْرَ أَشْكُو بِجَوْفَةِ الشَّامِ

قَالَتْ وَرَاءَكَ أَطفالٌ وَ قُلْـتُ لَهَا : أَنْعِمْ ، وَنِعْمَى ابْنِ فَضْلِ اللَّهِ قُدَّامِـي

لَوْلَا عَلِيُّ ابْنِ فَضْلِ اللهِ مَا اسْتَبَقَـتْ سفَائِنُ الْعِيسِ فِي لُجِّ الْفَلَا الطَّامِـيّ

38 ابن نباتة المصري جمال الدين ، ***ديوان ابن نباتة المصري*** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 16

39 اسماعيل يوسف السيد عودة ،(عدد خاص 2017)، ***المعجم الشعري في ديوان ابن نباتة المصري*** :دراسة أسلوبية ، في مجلة دورية علمية محكمة : ***حوليات آداب عين شمس*** ، ص. 158

لَعَاقِدٌ خِنْـــصَرَ الْمَدَّاحِ يَوْمَ ثَـــنَاءٍ وَ مُوَضِّحُ الْجُودِ فِيهِمْ بَعْدَ إِبْـــهَامِ

رَبُّ السِّيَادَةِ فِي إِرْثٍ و مُكْتَسَـــبٍ فَـــيَا لَهَا ذَاتُ أَنْـوَاعٍ وَ أَقْـــسَامِ

سُدْ يَا عَلِيُّ بْنِ يَحْيَى كَيْفَ شِئْتَ فَمَا فِي فِرَاعِكَ المِجْتَنَى وَالْأَصْلِ مِنْ ذامِ "40

عندما كتب ابن نباتة هذه القصيدة كان تحت ضغوط حالته السيئة.

" فالشاعر ابن نباتة ها هنا ، في هذه الأبيات الشعرية ، يصور لممدوحه سوء حالته المادية التي فرضت عليه العودة والارتحال من الشام إلى بلده مصر ، إلا أن ممدوحه طلب منه البقاء لرعاية أبنائه ، والذي طالما مدحه الشعراء بنسبه ومكتسبه ، إذ كان يمثل أصل الجود والكرم في عهده ولعل هذا ما تمكن من نشره الشاعر ابن نباتة من خلال مدحه له ، وأصبح ازاء ذلك نموذجا يقتدى به في الشعر.

وقال فيه أيضا :

"عِشْ يَا كَثِيرَ النَدَى و الثَّنَا وَ أَجرُكَ مَنْ ذَا وَ ذَا أَكْبَرُ

بِجُودِ يَدِيكَ ابْنِ فَضْلِ الْإِلَهِ تَنَاسُبُ مَنْـطِقِيِّ الْأَبْهَـرُ

فَإِنْ كُنْتَ غَيْثًا نَدِيًّا هَامِلاً فَإِنَّ نَـبَاتَ ثَنَاً مُـــزْهِـرُ"41

فالشاعر وهو يمدح ممدوحه يشبهه بالندى في الكرم والعطاء والسخاء ، ويثني عليه ثناء حسنا ، بل يربطه بذاته فيصور ممدوحه غيثا نديا، ويصور نفسه نباتا مزهرا .

إن الشعراء هم صوت ضمير المجتمع ، والمجتمع الذي يصمت شعراؤه هو مجتمع ميت لا يمكن لأي شاعر أن ينفصل عن الأسس العلمية و الأدبية للمجتمع الذي يعيش فيه . كما أن الشاعر يجب أن يكون مسؤولا عن تفسير المعارف التي اكتسبها من أسسه ومبادئه الاجتماعية والحضارية والتي يبدع فيها بطريقة فنية وأدبية تخول له أن يتعدى كل شعراء عصره ، وبذلك يستطيع كل الأدباء و الشعراء أن يتجاوزوا العصر الذي يعيشون فيه .

و يعد الشاعر ابن نباتة المصري ، باعتباره شاعرا عظيما في الحضارة الإسلامية ، شاعرا مملوكيا مميزا ، نجح في تفسير الاحتياجات الجديدة للقرن من خلال تفسير مخلفات الماضي ، ووضع الناس و احتياجاتهم في المقدمة في قصائده ، كما تمكن من الوصول إلى عصرنا الراهن .

المبحث الرابع: نثـره وأسلوبه في الكتابة

ابن نباتة المصري، جمال الدين محمد بن محمد، أحد أعلام القرن الثامن الهجري، عُرف بشعره الرائق ونثره الفائق. ورغم شهرته الشعرية، فإن نثره يستحق دراسة مستقلة لما فيه من براعة لغوية، وتوظيف فني لأساليب البلاغة، وتأثر واضح بأساليب الكُتّاب الكبار كالقاضي الفاضل.

و أثنى عليه الباحثون و أشادوا بقدرته العالية في التأليف ، قال أحدهم : (وله الشعر الرائق ، و النثر الفائق ، و هو أحد من حذا حذو القاضي الفاضل ، و سلك طريقه ، و أجاد فيما سلك ، و كان خطه في غاية الحسن)

إن إعجابه بالقاضي الفاضل واضح في أسلوبه ، وقد اختار كما ذكرنا ـ مختارات من نثره في مجلد سماه (الفاضل من إنشاء الفاضل) . و المعروف عن قاضي الفاضل أنه صاحب قلم رفيع في الكتابة . قال النويري إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله

40 ابن نباتة المصري جمال الدين، ***ديوان ابن نباتة المصري*** ، دار إحياء التراث العربي، بيروت .لبنان،ص. 442

41 ابن نباتة المصري جمال الدين، ***ديوان ابن نباتة المصري*** ، دار إحياء التراث العربي، بيروت .لبنان،ص. 201

أقرت أبناء البيات و اعترفت ، و من بحر علمه رويت ذوو الفضائل واعترفت ، و أمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، و بين يديه استقرت نواها ، فهو كاتب الشرق و الغرب في زمانه و عصره ، و ناشر ألوية الفضل في مصره ، و غير مصره ورافع العلم البيان لا محالة و الفاضل بغير إطالة . "42 و هو كان منبع العلم في عصره.

" و كان القاضي الفاضل يميل إلى تشخيص المعاني ، و التوفر على ألوان البديع لا سيما الجناس و التورية و تضمين الشعر و الاقتباس من آي الذكر الحكيم و الإكثار من العطف و الترادف . و الجنوح إلى الإطناب . ولم يلتزم ابن نباتة المصري بهذه الطريقة كل الالتزام ، فقد تخفف منها في كثير من الأحيان و مال إلى الأسلوب المطلق ، مثل ذلك ما نراه في كتابه (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) ، و نقتبس هنا طرفاً منه ، قال في ولادة بنت المستكفى (كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء الغرب الأمويين المنسوبين إلى عبد الرحمان بن حكم المعروف بالداخل ، من بني عبد الملك بن مروان ، تسمى ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمان ، ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها و قتله ، و تغلب ملوك الطوائف عليه ، في خبر يطول شرحه ، و صارت تجلس للشعراء و الكتاب و تعاشرهم و تحاضرهم ، و يتعشقها الكبراء منهم ، و كانت ذات خلق جميل ، و أدب غض ، نوادر عجيبة و نظم جيد ... و كان ابن زيدون كثير الشغف بها ، و الميل إليها ، و أكثر غزل شعره فيها و في اسمها) .. ولا بأس ان نذكر هنا أيضاً جزءاً من رسالته (مفاخرة بين السيف و القلم لنقف على أسلوبه المسجوع الذي جانب فيه التعقيد الميت ، قال على لسان القلم يرد على السيف)

(اتفاخرني و أنا للوصل و أنت للقطع ، و أنا للعطاء ، و أنت للمنع ، و أنا للصلح وأنت للضرب، و أنا للعمارة و أنت للخراب ... أعلى مثلي يشق القول و يرفع الصوت والصول ، وأنا ذو اللفظ المكين ، وأنت ممن دخل قوله تعالى : { او من ينشأ في الحلية و هو في الخصام غير مبين }فقد تحديت حدك : و طلبت ما لم تبلغ به جهدك هيهات أنا القائم بمصالح الدول و أنت في الغمد طريح ، و المتعب في تمهيدها و أنت غافل مستريح والساعى في تدبير حال القوم ، و المفنى لنفعهم العمر ، إذا كان نفعك يوماً أو بعض يوم ، فاقطع عنك أسباب المفاخرة ، واستر أنيابك عند المكاشرة فما يحسن بالصامت محاورة المفصح ، والله يعلم المفسد من المصلح ." 43 يبدو أن ابن نباتة كان حاذقا في كتابة النثر.

- من أبرز مؤلفاته النثرية:
- سجع المطوق
- المفاخرة بين السيف والقلم
- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون
- فرائد السلوك في مصايد الملوك

وكلها تعكس تمكنه من أدوات الكتابة الرسمية والأدبية في آنٍ واحد.

لماذا يستحق نثره دراسة مستقلة؟

- لأنه يمثل تطورًا في النثر المملوكي من الوظيفة الإدارية إلى الفن الأدبي.
- ولأنه يعكس ذائقة عصره في التأنق اللفظي والتكلف المحمود في التراكيب.
- ولأنه يربط بين تراث الكُتّاب العباسيين وبين أساليب المماليك المتأخرة

42 رشيد ناظم ،(04 06 2017)، *في أدب العصور المتأخرة*، www.mail.almerja.com

43 رشيد ناظم ،(04 06 2017)، *في أدب العصور المتأخرة*، www.mail.almerja.com

أولًا: خصائص نثره العامة

الأسلوب المسجوع: استخدم السجع بكثرة، لكنه لم يقع في التكلف، بل جاء سجعُه طبيعيًا يخدم المعنى، كما في رسالته "مفاخرة بين السيف والقلم".

التضمين والاقتباس: أكثر من تضمين الشعر والاقتباس من القرآن الكريم، مما أضفى على نثره طابعًا ثقافيًا ودينيًا رفيعًا.

التشخيص والبيان: تأثره بالقاضي الفاضل واضح في تشخيص المعاني، واستخدام الجناس والتورية، لكنه خفف من التعقيد، ومال إلى أسلوب أكثر سلاسة.

ثانيًا: أبرز مؤلفاته النثرية

"سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون": يُظهر فيه قدرته على التحليل الأدبي، وسعة اطلاعه على الأدب الأندلسي.

"الفاضل من إنشاء الفاضل": مختارات من نثر القاضي الفاضل، تدل على إعجابه الشديد به، وتُظهر ذائقته الأدبية.

"مفاخرة بين السيف والقلم": قطعة نثرية مسجوعة، تمثل ذروة فنه في المحاكاة البلاغية، وفيها يظهر القلم منتصرًا بالحجة والمنطق.

ثالثًا: التحليل الأسلوبي

بحسب دراسة أسلوبية حديثة، فإن نثر ابن نباتة يتميز بثلاث ظواهر بارزة:

التكرار: يُستخدم لتأكيد المعنى وإبراز الانفعال.

الانزياح: أي الخروج عن المألوف في التعبير، مما يضفي طرافة وجمالًا.

البديع: كالجناس والطباق، وظّفها دون أن يطغى الزخرف على المعنى.

نثر ابن نباتة المصري يمثل حلقة وصل بين نثر العصر العباسي المتأخر ونثر المماليك، يجمع بين فخامة الأسلوب ووضوح المعنى، وبين التأثر بالتراث والتجديد في التعبير. وهو نثر يستحق أن يُدرّس إلى جانب شعره، لما فيه من ثراء لغوي وفكري.

مقارنة أسلوب ابن نباتة المصري بأسلوب القاضي الفاضل تكشف عن تداخلٍ بين التأثر والتفرّد، إذ كان ابن نباتة من أبرز المعجبين بالقاضي الفاضل، حتى أنه جمع مختارات من نثره في كتابه "الفاضل من إنشاء الفاضل"، لكنه لم يكن تابعًا له تمامًا، بل طوّر الأسلوب بما يناسب ذوق عصره.

إليك أبرز أوجه المقارنة:

1. **البناء البلاغي والزخرف اللفظي**

القاضي الفاضل: يُعدّ من أعمدة الترسل الفني في العصر الأيوبي، اتسم أسلوبه بالفخامة والجزالة، مع عناية فائقة بالمحسنات البديعية، لا سيما الجناس والتورية، وكان يميل إلى تشخيص المعاني وإبرازها في صور ذهنية قوية.

ابن نباتة: تأثر بهذا البناء، لكنه خفف من التعقيد، ومال إلى الأسلوب السلس، مع المحافظة على البديع، لكنه جعله أكثر انسجامًا مع المعنى، كما في رسالته "مفاخرة بين السيف والقلم"، حيث جاء السجع طبيعيًا لا متكلفًا

2–التضمين والاقتباس

كلاهما أكثر من الاقتباس من القرآن الكريم والشعر العربي، لكن:

القاضي الفاضل استخدمه لإضفاء هيبة دينية وسياسية على رسائله.

ابن نباتة وظّفه لإثراء المعنى الأدبي، وغالبًا ما كان التضمين عنده جزءًا من بناء الصورة البلاغية.

3–الغاية من الكتابة

القاضي الفاضل كتب في سياق الدولة والسياسة، فكان نثره أداة دبلوماسية وإدارية، لذا جاء أسلوبه رسميًا ومهيبًا.

ابن نباتة كتب في سياقات أدبية وثقافية، فكان نثره أقرب إلى البيان الأدبي، يهدف إلى الإمتاع والتأمل، لا مجرد الإقناع.

4. التفاعل مع المتلقي

القاضي الفاضل خاطب الملوك والوزراء، فجاء أسلوبه موجّهًا للنخبة.

ابن نباتة خاطب جمهورًا أوسع، فجاء أسلوبه أكثر انفتاحًا ومرونة، مع لمسة وجدانية واضحة.

الخاتمة:

وهكذا، وبعد أن جالت أقلامنا في رياض الإبداع، وتتبعت نبض الكلمة في نثر وشعر ابن نباتة المصري، نصل إلى شاطئ التأمل في أثر هذا الأديب الذي جعل من اللغة العربية جوهرةً منسوجة بخيوط البيان، مطرّزة بأنامل البلاغة، ومغموسة بحبر العصر ومزاج الثقافة.

لقد اتضح من خلال هذه الدراسة أن ابن نباتة لم يكن أديبًا عابرًا في سجل التاريخ، بل كان صانعًا لأسلوب، ومؤسسًا لنبرة أدبية امتزج فيها عمق التراث بجمال الصنعة، وغلب فيها الوجدان على الصنعة، وإن ظل وفياً لمقتضيات البديع. في شعره وجدنا صوت العصر المملوكي، يحاور الوجدان تارة، ويطعن الفساد تارة أخرى، ويشتبك مع الواقع بذكاء لغوي لا يخلو من مرارة التهكم وحرارة الموقف. وفي نثره لمسنا نفسًا واعيًا بجماليات السجع والاقتباس والتضمين، لكن بروح أخف وطأة من أستاذه القاضي الفاضل، وأقرب إلى روح القارئ ووجدانه.

لقد دلّت الأمثلة التطبيقية على أن ابن نباتة كان فارسًا للكلمة في ميدان الجمال، وناقدًا بصيرًا في مرآة اللغة، وأمينًا على بلاغة تراثه دون أن يغلق باب التجديد. فأدبه لم يكن مرآة للألفاظ فحسب، بل موئلًا للمعاني، وفضاءً حُرًا للبوح الإنساني في أبهى صوره.

ومن هنا، فإن أثر ابن نباتة في الذائقة الأدبية لم يكن أثرًا لحظةً أو ظرفًا، بل ظل حيًا يُستعاد، يُدرّس، ويُستلهم في موازين الشعراء وأقلام الكتّاب على مرّ العصور.